

نظام فهرسة المكاتب

بقلم محمد كيليطو

تفضل الاديب السيد محمد كيليطو من المكتبة العامة بالرباط
ببحث قيم عن ترتيب الفهارس بالمكتبات نقطف منه ما يلي :

والفهرسة ان كانت ظهرت قبل هذا العصر
اي القرن الرابع ق م فان واجب العمل قد فرضها
بحكم الممارسة وعلى ضوء التجارب من خلال ما كان
يتصدى من صعوبات لرواد المكتبة ومسيريها في
التاريخ القديم .

ومنذ ذلك الحين والمكتبة تتقدم بكيفية مجدية
ويعمل ايجابي ومجهودات متواصلة فكلما ازدهرت
المكتبة توسعت فهارسها ، وكل مستفيد يقدر اجتهاد
المكتبي في كل لحظة والمضطلع بهذه المهمة لا يتهاون
لحظة في انجاز العمل لكون الانتاج الفكري غزيرا منذ
كان وطغيانه على المكتبة عتيده ومنهمر ودولاب
الفهرسة لا يقف سيره ليلا ونهارا .

فمنذ ظهرت الطباعة والانتاج في كل بلد ينصب
بدون انقطاع لا من جهة طبع التراث القديم او تأليف
الكتب الجديدة بل من البحوث والدراسات العلمية
والتاريخية والدينية والفنية التي تصدرها الصحف
والمجلات والنشرات .

وهذا الانتاج يتحتم ابرازه بالفهارس لكي يبقى
حيا رائجا على بطائق الفهارس المتحركة في عـدة
اصناف اولها على اسم المصنف والشارح والترجمان
والمرجم له وثانيها على عنوان الصنف وثالثها على

ان فهرسة الكتب نظام ايجابي لكل باحث ،
وابتكاره قديم جدا ، فقد عرفنا نشأته الحقيقية بعد
ظهور مكتبة الاسكندرية واول مصنف لفهرسة الكتب
من مجموعة هذه المكتبة هو كليباخوس احد تلاميذ
« الفيلسوف ارسطو (384 — 322 م) » الذي قام
بدور الاستاذية في مدرسة معلمه بعدما غادر اثينا
والتحق بالاسكندرية ليسانس بطليموس الاول المعروف
ببطليموس سوتير Ptolemée Sôter على تنظيم المكتبة
التي اسسها هذا الملك بعد موت « الاسكندر الاكبر
(356—323 ق م) » واهدى اليها ارسطو كتبه قصد
ازدهارها واناة روادها من كل طبقة في مستوى
العلم .

وكليباخوس المبتكر للفهرسة هو من مواليد
الربع الثالث من القرن الرابع قبل الميلاد ويعتبر
الرائد الاول لعلم البيبليوغرافية لما استخرج هذه الكتب
من المجموعة الكبرى اي خمسها من خمسمائة الف
كتاب .

ولما التحق بهذه المكتبة قام بتجريد الكتب اليونانية
الخاصة بتاريخ اليونان وعلومه ولغته وكل ما كتب
عنه بلغات اخرى .

ومن ثمة عرف الانسان اسلوب الفهرسة الذي
اصبح يتطور وتنوع اصنافه واهمها هـنـى
البيبليوغرافية القومية .

حظا منها الا بتكليف نفسه عناء مراجعة جميع القوائم
المجرودة .

وظل هذا النظام قائما في العراق ومصر وسورية
والفرس واليونان والرومان وبيزنطة ولم يطرا عليه
اي تغيير حتى جاء الإسلام .

وفي النهضة الاسلامية تطور نظام المكتبة تطورا
محسوسا حيث خصص لكل علم سجل ثاتوي بعد
تسجيل الكتب على سجلات بدون انتظام كما اشرنا
اليه من قبل وكل سجل من سجلات المواضيع يختص
بعلم من العلوم .

وهذا النظام ما زال مطبقا حتى في بعض المكتبات
المتأخرة عن النظام الحديث رغم انه ظهر منذ اواخر
القرن الثامن عشر وطبقته كثير من المكتبات المتقدمة
وهو ترتيب بالارقام ومقاييس الاحجام واثبت
الفهارس على بطائق متحركة . اما مواضيع العلوم
التي كان يجدها الباحث متراكمة في المستودعات وغير
مكرسة بالفهارس فان هذه الطريقة كانت فيها ذبذبة
في ترتيب الكتب لاختلاف الاحجام وتعدد انواعها اذ
منها الضخم والكبير والمتوسط والصغير (والهزيل
يبتلعه الكبير) زد على ذلك اللغائف والاوراق من كل
صنف والالواح الخشبية والاجر وصفائح المعادن
وورق البردي وسعف النخيل ورقاع الجلود والثلث
الخ ...

وقد وضع الآن للعلوم قواعد فهرسية ايجابية
فاصبح كل صنف من الكتب يرتب حسب نوعه وحجمه
اما في عصور الاسلام الزاهرة فقد عرفنا
انفهارس التي كانت ببيت الحكمة ببغداد ودار الحكمة
بالتاهرة ومكتبة الحكم الثاني بقرطبة .

وقد انجز اول فهرسة في الاسلام ابن النديم
سنة 377 هـ 987 م وهو في سن الخمسين وهو يعد
من اول المصنفين له وقد اقتبسه من كتب وقائمت
المكتبات التي تمت ترجمتها في عصر هارون الرشيد
الخليفة العباسي وابنه المأمون في دار السلام ببغداد .

ولفهرست ابن النديم شأنها في التاريخ فقد اعتد
عليها كل كاتب . وقد ذكر يوسف أسعد داغر في كتبه
فهارس المكتبة العربية في الخافقين ص 7 و 8 ما يلي :

كتاب الفهرسة او فهرس العلوم لمؤلفه ابي
الفرج اسحق بن يعقوب النديم البغدادي . الوراق
استنادا على عدة مصادر اشار اليها بصفحة 7

الموضوع الفني والعلمي يرتب الاول والثاني على
حروف المعجم والثالث « الاخير » في نطاق المجال
العلمي بتناسق على التفرع الموضوعي المتسلسل .
ومثل هذا التنظيم قد ساد بالمكتبة القديمة
في اسلوب بسيط كان يتطور كل يوم بحكم تطور حياة
الانسان وتقدم اوضاع النظم .

كانت المكتبة القديمة قائمة من العصور البابلية
الاولى وعصور السومريين وقدماء المصريين بكيفية
تناسب ظروفها وان كان التاريخ محاها من صفحاته
فان اكتشافات القرن الماضي قد تجلى منها ملحمة
كلكاميس التي كتبها هذا الشاعر البابلي في القرن 32
قبل الميلاد والتي عثر عليها انجليزي بمدينة نينوي
بالعراق سنة 1840 م كما عثر الاستاذ ليارد
الانجليزي Lyard على المكتبة الهيكلية سنة 1848م
بخرائب قصر اشور بانيبال بنفس المدينة وصانت
هذه المكتبة تراثا عظيما بالكتابة المسارية على الواح
من الصلصال وذخائر اخرى ظهرت في ارض الكنانة
بالكتابة الهيروغليفية وما قبلها كالصوتية والصورية
كانت تتراكم بدون فهرسة في كل زاوية موضوع من
مواضيع العلم وهذه الطريقة هي التي كانت تمكن
الباحث مما يريد عندما ينقب على الكتب مباشرة
داخل المخازن .

ولما كثر الضياع عن طريق الاختلاس فكر رجال
المكتبة في جعل حد لذلك بين رواد المكتبة وكتبها
ووثائقها المصونة ، فحدثت الفهارس التجريدية
وكانت بمثابة مرآة ينظر فيها الباحث كل ما تطويع
يطون مخازن المكتبة من بعيد فيشير بما اختاره الى
المكتبي فياتي به اليه عاجلا .

وهذا الابتكار لعب دورا هاما في صيانة الكتب
وتحفية كل تعب على الباحث الذي كان ينقب على
الكتب المبعثرة والمتراكمة بعضها فوق بعض وقتا
طويلا دون ان يصل الى هدفه الا بشق الانفس .

وعلى ضوء ما قام به كليماخوس طبقت كل
مكتبة مشروع الفهرسة ومنهج غير ان الكتب كانت
تجرد كتابا بعد كتاب دون ترتيب عناوينها واسماء
مؤلفيها او تمييز مواضيعها وهذا التنظيم البدائي
بالنسبة الى الآن يعد من اكبر المشاكل لان الباحث لا
يستطيع ان يدرك بسرعة ما كانت تتضمنه المكتبة من
مؤلفات كاتب ما او يلم بما صنف من كتب في مادة من
مواد العلوم التي هو بصدد البحث فيها فلا ينال

وباختصار ما جاء في المصدر المذكور : « ان هذا الكتاب يعد من اقدم كتب التراجم ومن افضلها وضوحا وهو من جملة المخطوطات المصرية التي تزحقت الى باريس والمخطوطات القسطنطينية التي ليدين في القرن 17 م . وقد ظل المستشرق الالماني فلوجيل Flugel بعدما جمع مخطوطات من بينه باريس وفيه ليدين عاكفا بالعمل على نشره مدة ربع قرن » مثلما استغرق ابن النديم في تصنيفه 20 سنة »

لكن مات فلوجيل سنة 1870 قبل ان يطبعه فقام بعده بمواصلة العمل هرمان روديجير H. Roediger و ا. مولير A. Muller فنشرت الفهرسة بالعربية في ليزيغ Leipzig اشتملت على 360 صفحة سنة 1871 والحق بها ذيل سنة 1872 في 279 صفحة يتضمن التفسير والتعليق والاستدراكات بالعربية والالمانية مختوما بفهارس الاعلام المذكورة بالفهرسة. وهذا الكتاب هو من اقدم القوائم العربية واهمها، وعليه يعتمد دارسو آداب اللغة العربية والمولعون بمعرفة المؤلفات والمؤلفين . ثم زاد قائلا « ان ابن النديم اعتمد على من تقدمه من العلماء الذين وضعوا قوائم للمؤلفات والمترجمات والخزائن ورتب ابن النديم كتابه على عشر مقالات حافلة بالفوائد وهذا بيتها وترتيبها :

المقالة الاولى : على ثلاث فنون

الفن الاول وصف لغات الامم من العرب والعجم ونوعت اقلامها وانواع خطوطها واشكال كتابتها .

الفن الثاني في اسماء الكتب ، كتب الشرائع المنزلة على مذاهب المسلمين ومذاهب الفرس الثالث في لغة القرآن الشريف واسماء الكتب المصنفة في علومه واخبار القراء واسماء رواتهم والشاذ من قراعتهم .

المقالة الثانية : ثلاث فنون ايضا في النحويين واللغويين .

الفن الاول ابتداء النحو واخبار النحويين البصريين وفصحاء الاعراب واسماء كتبهم .
الفن الثاني في اخبار النحويين واللغويين من الكوفيين واسماء كتبهم .
الفن الثالث في ذكر طائفة من النحويين الذين خلطوا المذهبين واسماء كتبهم .

المقالة الثالثة في الاخبار والآداب والسير والانساب
« الرابعة في الشعر والشعراء
« الخامسة في الكلام والمتكلمين
« السادسة في الفقه والمفتاه والمتحدثين
« السابعة في الفلسفة والعلوم القديمة
« الثامنة في الخرافات والعزائم والسحر والشعوذة
« التاسعة في المذاهب والاعتقادات
« العاشرة في اخبار الكيمائيين والصوفيين من الفلاسفة القدماء والمحدثين واسماء كتبهم « انتهى »

وقد اقتدى الاعلام واساطين العلم بهذا الكتاب واصبح كل عالم يفهرس فهرسته يذكر فيها كتبه التي صنفها او ملكها او اطلع عليها او قرأ عنها او سمع بها يصف فيها كل ما راج بينه وبين اساتذته وتلاميذته او بمن اتصل به رجال الفكر ويدون فيها ارتساماته ومذكرات انطباعاته عن ما شاهده في الاجتماعات والاسفار او ما سمع في المناظرات والمحاضرات ومجالس الشيوخ والعلماء والامراء والملوك والقضاة والولاة وكثير من الفهارس اشتملت على قطع من العلوم ونبذ من التاريخ وتراجم الرجال .

وعلى منهج ابن النديم قامت المكتبة العربية ففهرست كتبها على عدة اصناف بأساليب متنوعة في سجلات حسب ما وصف ابن خلدون عن مكتبة الحكم الثاني بالاندلس وغيرها من المكتبات في الشرق الاسلامي تصفها جل المصادر التاريخية والعلمية .